خليل الكيال - جامعة شعيب الدكالي - المغرب
khalilekyal@gmail.com

المجاز المُرسَل في رباعيات المجذوب
"علاقة المحلية نموذجا"

The metaphor sent to the Majzoub quartets
"The local relationship as a model"

تاريخ الاستقبال / Date de soumission	تاريخ القبول/ Date d'acceptation
27.07.2019	25.09.2019

تاريخ النشر / Date de publication
20.11.2019

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن المعاني المكنونة في رباعيات المجذوب، اعتمادا على صورة المجاز المرسل، خاصة المجاز الذي علاقته المحلية، باعتباره صورة بلاغية تقوم على تسمية الحال بالمحل، وقد اعتمد التحليل على استثمارالسياق، من خلال استدعاء الظروف النفسية والاجتماعية والتاريخية والثقافية للمتكلم والمستمع.

الكلمات المفتاحية

عبد الرحمن المجذوب؛ رباعيات؛ مجاز؛ علاقة محلية؛ بلاغة.

Abstract

This study aims at uncovering the meanings of Al-Majzoub, based on the image of the transmitted metaphor, especially the metaphor that is related to the local, as a rhetorical image based on the naming of the case in the shop. The analysis relied on contextual investment by summoning the psychological, social

key words

Abdul Rahman Majzoub ; quartet ; metaphor ; local relations ; rhetoric.

مقدمة

يتميز الخطاب الصوفي الشعري بالغموض، باعتباره "سمة مميزة للنص الشعري تجعل منه جنسا يسمو نحو الغرابة، ويعلو عن الخطابة، ويزخر بالإيحاء"(01)؛ فالكلمة الواحدة حمّالة أوجه، وإن كان لها ظهر واحد، فلها أكثر من بطن؛ إذ يمكن لكل قارئ حسب مقامه العرفانية أن يقف عند مستوى من المستويات التأويلية التي تقبلها العبارة، ف "القارئ الجيد هو الذي يستطيع الغوص إلى أعماق البيت الشعري من أجل استكناه أسراره واستخراج دُرره، وعدم الاكتفاء بالمعنى الظاهر السطحي الذي لا يوصل إلى حقيقة ما أراده الشاعر..."(02).

ورباعيات المجذوب من إنتاج عبد الرحمن بن عياد الدكالي المغربي (1506هـ 1568هـ)، زجال صوفي من أئمة المتصوفة،من أشهر تلامذته: العلامة أبو المحاسن الفاسي، إمام الطائفة الشاذلية بوقته(03)، يقول عبد الرحمن المجذوب مفتخرا بمنزلته:

نَصْـعَدْ عْلَى كلُّ كُرْسِـي نُورِي اشْـرَقْ عْلَى كُل المواطن(04)

لِي شْرقْ عْلَى الْغرْبْ شَمْسي وَنْسـيرْ سَـيرْ السْـلاطَـن

تفرق زجل المجذوب في الأقطار المغاربية، وفهمها الناس فهما سطحيا؛ إذ لم يستحضروا المعاني الصوفية الكامنة وراء السطور؛ فعبارة الصوفي حبلى بالمعاني، الأمر الذي يفسر جنوحه للمجاز؛ فهو أبلغ من الحقيقة، كما يقرر ذلك علماء البلاغة(05).

سنحاول في هذا المقال أن نبحث في بلاغة المجاز المرسل في رباعيات المجذوب، مع التركيز على علاقة المحلية؛ لأننا نفترض أن تكون هذه العلاقة هي الأنسب في الكشف عن الحقائق العرفانية، طالما أن علاقة المحلية تنبني على ذكر المحل وإرادة الحالّ: فالمحل هو الظاهر، بينما الحال هو تلك المعاني الثاوية، التي تمثل الحقيقة المنشودة من قبل الصوفي.

ونشير إلى أننا ضبطنا الرباعيات وفقا للسان دكالة(06)، لأنها موطن رأس المجذوب، بدلا من اللسان الجزائري الذي ضبطت به الرباعيات في الكتب المطبوعة. والإشكال الذي تثيره هذه الدراسة هو: كيف يمكن للمجاز المرسل من خلال علاقة المحلية أن يكشف عن مكنونات ذات الشاعر المتصوف؟ وإلى أي حد يستطيع القارئ المطلع على مرجعية الشاعر وسياق النص أن يفك ألغاز ألفاظه، ويهتدي إلى الرسالة الخاصة التي وجهها إلى مريديه، ويفطن إلى الرسالة العامة التي يوجهها إلى الناس أجمعين؟

1. مفهوم المجاز المرسل

المجاز المرسل كلمة استعملت في غير معناها الأصلي، لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي(07). فإن كانت العلاقة بين المعنى الأصلي والمجاز علاقة مشابهة

كانت استعارة. قال القزويني: "والمجاز ضربان: مرسل واستعارة؛ لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة ، وإلا فهو مرسل"(08).

1.1. علاقات المجاز المرسل

يقع المجاز المرسل على وجوه كثيرة منها:

- تسمية الشيء باسم جزئه: نحو قوله تعالى {قم الليل إلا قليلا}.المزمل لآية 2: أي صلِّ.

- ومنها تسمية الجزء باسم الشيء كله: نحو قوله تعالى {يجعلون أصابعهم في آذانهم}، البقرة الآية 19: أي أناملهم.

- ومنها تسمية المسبب باسم السبب، نحو قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

الجهل الأول حقيقة، والثاني مجاز عبّر به عن مكافأة الجهل.

- ومنها تسمية السبب باسم المسبب، كقولهم:أمطرت السماء نباتا، وعليه قولهم "كما تدين تدان".

- ومنها تسمية الشيء باسم ما كان عليه، كقوله تعالى {وآتوا اليتامى أموالهم}: النساء الآية 2: أي الذين كانوا يتامى.

- ومنها تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه، كقوله تعالى{إني أراني أعصر خمرا} يوسف الآية 36: أي باعتبار ما سيكون عليه العنب بعد عصره.

- ومنها تسمية الحال باسم محله، كقوله تعالى: {فليدع ناديه} العلق الآية 7: أي أهل ناديه.

- ومنها تسمية المحل باسم الحال، نحو قوله تعالى: {وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله}؛ سورة آل عمران الآية 107: أي في الجنة.

- ومنها تسمية الشيء باسم آلته، نحو قوله تعالى {واجعل لي لسان صدق في الآخرين}؛ سورة الشعراء الآية 84: أي ذكرا جميلا(09).

وطالما أن الرباعيات قيد التحليل من إنتاج شيخ في التصوف، يهتم بالحال أكثر من اهتمامه بالأسباب والجزئيات، افترضنا أن أهم علاقة تتجلى فيها ذات الصوفي هي علاقة المحلية، التي تتجلى في إطلاق اسم المحل على الحال.

وهذا لا يعني أن رباعيات المجذوب تفتقر إلى المجاز المرسل بعلاقاته الأخرى، ولتوضيح علاقة المحلية بالحالّ، سنتناول بوجه الإجمال: علاقات المجاز المرسل في رباعيات المجذوب، ثم نتناول بوجه مفصل: المحلية وعلاقتها بالحالّ.

2. المجاز المرسل في رباعيات المجذوب

استعمل المجذوب المجاز المرسل بمختلف علاقاته، من ذلك:

- الجزئية والكلية نحو قوله:

عَيَّطْتْ عَيطَة حْنينَة فَيّقْتْ مَنْ كان نَايْم(10)

ناضُوا قْلوبْ المْحَنَّة وْرَقْدُوا قْلُوبْالَبْهَايْمْ

أسند المجذوب القيام والرقاد إلى القلوب وأراد أصحابها، من باب إطلاق الجزء على الكل. وقال في موضع آخر:

أنا قلْبي رْهيفْ ما يَحْمَلْ تَكليفْ وأَنْتُمْ يَالَطيفْ ما فيكُم رَحْمَة(11)

رْفَدْتُونا مْنينْ كانْ الْحْمَلْ خْفيفْ سَيَّبْتونَا مْنينْ صَرْنا ضَعْفَة

أطلق الجزء أي؛ "القلب"، وأراد الكل؛ أي: "الذات"، التي يُفترض أن تحمل التكاليف، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى:{لا يكلف الله نفسا إلا وسعها..} البقرة، الآية، 285، ثم قابل ذلك بإطلاق الكل على الجزء في قوله "ما فيكم رحمة؛ فقد ذكر الذوات وأراد مواطن الرحمة أي القلوب التي هي جزء من الذوات.

- علاقة السببية والمسببية نحو قوله:

نْوَصّيكُم يا بْنَات لا تَّاخْذُوا البَحْري(12)

يَّرْمِي الَقْلُوع فِي الْبْحَر وِيْخَلِّي الدّموع تجري

ذكر الدموع مجازا، وأرد الموت الذي يتسبب في جريانها، من باب إطلاق المسبب وإرادة السبب. وقد ركز على المسبب لأنه حسي؛ فتذكير البنت بالدموع أشد وقعا على النفس من ذكر الموت.

- الآلية نحو قوله:

خْفيفْ الاَقْدامْ يَنْمَلْ لُو كان وَجْهُه مْرايَة

قْليلْ الَكْتافْ يَنْذَلْ لُو كَان جَهْدُه عْتَايَة

ذكر الأقدام وأراد ما تقوم به من مشي لزيارة الأقارب، وذكر "الَكْتاف" وأراد ما تقوم به من جهد لكسب الرزق، والعلاقة بين الحقيقة والمجاز آلية.

- الحالية.

وأحيانا يذكر الحال ويريد المحل، نحو قوله:

مَهْبُولْ مَنْ يَحْرَثْ الْفُولْ فِي شَطْ مَالَحْ يْلُوحُه

مَهبولْ مَنْ يَّاخُدْ الْقَولْ في صاحَبْ دُونْ رُوحُه

أطلق الحال على المحل؛ إذ ذكر الفول وأراد الأرض، أي المحل، حيث يُزرع الفول.

3. المحلية وعلاقتها بحال المجذوب

اكتفينا فيما سبق بعرض شواهد لأهم علاقات المجاز المرسل التي استعملها المجذوب في رباعياته، ووقفنا على هذه العلاقات بإجمال. وسنخصصما سيأتي للحديث عن علاقة المحلية، وسيكون تحليلنا تحليلا بلاغيا مفصلا، يأخذ بعين الاعتبار الظروف النفسية والاجتماعية والتاريخية والثقافية التي تؤطر نصوص الرباعيات. ويلاحظ أن المجذوب في رباعياته قد استعمل نوعين من المحل، فمرة يعتمد محلا ماديا محسوسا، ومرة أخرى يعتمد محلا معنويا، فإلى أي حد يستطيع مجاز المحلية - باعتباره تقنية بلاغية تحليلية - أن يكشف عن المعاني الصوفية، التي تعجز الحقيقة عن التعبير عنها؟

1.3. المحل المادي المحسوس

يطلق المتكلم المحل على الحال مجازا، ويسمي البلاغيون هذه العلاقة من علاقات المجاز المرسل بالعلاقة المحلية، وعادة ما يكون المحل المذكور ماديا محسوسا، يسند إليه المتكلم صفات يختص بها الشيء الحالّ في المحل؛ فالقرية أو النادي لا يتكلمان، لأن الكلام من خواص الأشخاص الذين يحلون بهما.

يقول المجذوب:

آش هِي بْلادْ سُوفْ أرْضْ الَعْطَشْ وَالْجُوفْ(13)

كَسْوتْهُم شْعَرْ وَصُوفْ عِيشْتْهُمْ لُقْمْتِينْ وَيْنُوضُوا وْقُوفْ

يتحدث المجذوب في هذه الرباعية عن ساكنة سوف، ذكر محمد رباحي في كتابه "قال المجذوب" أن سُوف منطقة من الصحراء الجزائرية،من الجنوب الشرقي، تتسم بشدة الحر، وقلة المعايش(14).

ويحتمل أن يكون المجذوب في هذه الرباعية قد عرّض ببخل سُوف، وكشف عن معاناته في بلادهم. لكن لماذا كل هذا الهجو اللاذع؟ أليس غريبا أن يصدر هكذا هجاء من شيخ في السلوك؟ لا شك أنه إذا عرف السبب بطل العجب. وقولنا العجب، لأن الشاعر صوفي، ومن كان كذلك يفترض أن لا يستهزئ بغيره، لأن المستهزئ يعتقد أنه أحسن حالا ممن استهزأ منه، مما يوحي بأن المجذوب معجب بنفسه؛ قال تعالى: {...لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم} الحجرات الآية 11. وهذا لا يكون، وإلا فما وجه قول المجذوب:

إذا تْسالُوا عْلى الْحَال لا حَالْ يْشَابَهْ حَالي(15)

وِايذَا تْسَالُوا عْلَى النَّاس مْقَامْهُم رَيتْ عَالي

ويحتمل أيضا أن يكون ما جاء على لسان المجذوب بمثابة رد فعل ناتج عن إحساسه بالاحتقار؛ فقد تتعرض ذاته للشتم(16)، فيضمر ذلك في قلبه، ثم يتجلى ما كان مختبئا في

اللاشعور ويظهر في إبداعه. وهكذا، تطفو المكبوتات على سطح الرباعيات، فيقول ما يقول تفريجا على النفس. وهذا يعني أن المجذوب قال هذا الكلام في غير وعيه؛ فقد كانت تأتيه خضخضة: وهي علامة على تهيجه النفسي حيث يتأثر إلى درجة كبيرة بالجو المسيطر(17) مما يدل على أنه كان مصابا بالذهان الذي تطلق عليه العامة الجنون(18).

وقد رماه الناس بالجنون فأبى أن يعترف به فقال:

مَجْذُوبْ ما نَاشِي مَجْنُونْ غيرْ الاَحْـوالْ للّي بِيَّا(19)

يقول رالف رزق الله: لا يعي الذهاني عادة مرضه ولا اضطراباته السلوكية... ولا يحاول أن يخفف من اضطراباته أو حتى أن يخفيها... ويشعر المريض بفقدانه التدريجي لقيمته الاجتماعية(20). ويعني الإحساس بفقدان القيمة الاجتماعية أن المجذوب يشعر بالاحتقار، وفي هذا الإطار يمكن أن نفهم قوله في أهل السرس:

من الغَربْ شْهُودْ ومن الظّهْرَة يْهُودْ(21)

لاشك أن هؤلاء قد احتقروه. ولعل هذا ما يفسر افتخاره بنسبه الشريفي قوله:

أَصْلي مَن تُونس الخَضْرا وَلّي عَنْدُه نْسَبْ يْدَوَّرْ عْليهْ(22)

أنا وَلدْ فاطِمَة الزَّهْرَا وَالْكاذَبْ لَعْنَتْ اللَهْ عْليهْ

ويقول المجذوب عن الغرب:

أَلّي يْجِي مَن الْغَرْبْ مَا يْفَرّحْ الْقَلْبْ(23)

إذَا لْقِيتْ الزّهُو والطَّرْبْ مَا تْبَدْلُو بِالشّقَا والتَّعْبْ

تأمل المجذوب الغرب، ولعله أراد القصر الكبير، الذي استوطنه، ووجد أن ما يحصل فيه من القلاقل والاضطرابات لا ينبئ بخير؛ فذكر الغرب وأراد سكانه، مسميا الحال بالمحل، والعلاقة المحلية. وغاية المجذوب هنا، هي: التحذير من شر مرتقب. ويفسر ذلك قوله:

الْغرْبْ يا بُو الشْنَادَلْ مَا لَكْ تْدَوَّرْ عْلِيهَا

الاَوَّلْ مْعَ الْبَرابَرْ والثاني مَنْ كُلْ جِهَة

قال المجذوب: "من كل جهة"، مشيرا إلى المحل، ولم يقل مع كل جهة، أي الحال، مع أن هذا هو المراد؛ تعظيما للخطر المحدق؛ وهكذا يظهر المجذوب في صورة الناصح الأمين لساكنة الغرب.

وقد يتخذ الغرب بعدا رمزيا يفيض بالمعاني، فيتجاوز الدلالة على الحال؛ بمعنى من يسكن منطقة الغرب، ليدل على معاني روحية؛ فقد أسس في الغرب زاوية وأصبح لديه مريدون، يقول المجذوب:

نَصْعَدْ عْلَى كُلْ كُرْسِي نُورِي اشْرَقْ عْلَى كُل المواطن(24)

لِي شْرقْ عْلَى الْغرْبْ شَمْسي وَنْسيرْ سَيرْ السْلاطَن

وهكذا، لا يمكن أن نستبعد أن تتحول هذه المواطن التي تذكر في الرباعيات لتعبر عن من يحل بها إلى رموز ونماذج ثقافية تختلف دلالاتها باختلاف السامع؛ ذلك أن الرباعيات لم تستقر بمنطقة معينة، بل عبرت شمال إفريقيا طولا وعرضا.

2.3. المحل المعنوي (متعلق بالقلب)

وكما استعمل المجذوب محلا ماديا ملموسا، استعمل أيضا محلا معنويا يتعلقبالقلب، الذي يشتغل عليه أرباب التصوف، بتخليته من الرذائل،وتحليته بالفضائل،حتى يزّكّى ويصفو.ويتم التعبير عن الحال بلغة صوفية رمزية.

يقول المجذوب:

قَلبِي صْنَيديقَة ذْهَبْ الْعَشْقْ هُوَّ مَفْتَاحُه(25)

إذا هَبُّوا الاَرْيَاحْ يَطَّرطْقُوا لْواحُه(26)

يعود ضمير الهاء في "لْواحُه" على القلب؛ والمراد اللوح المحفوظ. ويحدث "الطَّرْطيقْ" نتيجة لضغط "الاَرْيَاح" أي: الأرواح، إشارة منه إلى أنه وصل مقاما من الصفاء نتيجة للعشق المرضي، الذي لا علاج له سوى الذكر. يقول المجذوب في محمد صلى الله عليه وسلم:

الْحُب مَنّكْ ما هُو لي وانْت الْحبيبْ الّي نْهْوى

انْتَ الْحْبيبْ لّي نَهْوَى رَيْتْ حُبَّكْ فِيهْ الدُّوَا(27)

يتحدث المجذوب عن مقام الجذب الذي يظن من يجهله ضربا من الجنون، فهو يتميز بالكشف ومعرفة بعض من أمور الغيب، يودعها عالم الغيب في صدره، كرامة منه، يعطها لمن يشاء من أوليائه، ويرى المجذوب أنه واحد منهم. أطلق الألواح وأراد ما هو مكتوب فيها، للدلالة على المكتوب بالقضاء والقدر في اللوح المحفوظ. والعلاقة المحلية.

يقول المجذوب مؤكدا المعنى السابق:

مَجذوبْ ما أنا مَجْنونْ غِيرْ الاَحْوالْ اللّي دَارَتْ بِيَا(28)

اقْرِيتْ فِي اللُّوحْ المَحفُوظْ والسَّابْقَة سَبْقَت لِيَّا

إن ما قرأه المجذوب مكتوب في اللوح المحفوظ؛أي أن ما قضاه الله في السابق، يسبق إلى قلبه بإذن الله تعالى، وهذا من المواضيع التي يتعرض لها الصوفية، يقول ابن خلدون: "فإن كلامهم (الصوفية) في أربعة مواضع: ... وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب، مثل الصفات الربانية، والعرش، والكرسي، والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد، وتركيب الأكوان في صدورها عن موجدها ومكونها..."انتهى(29).

وكل هذا يحصل بالذوق، يقول المجذوب:

إِيدَا هُوَ سَـرْ الأَوْرَاقْ حَـدْ الَحْلاَوَة لْسَانِي
وِايدَا هُوَ سَرْ الاَدْوَاقْ أَنَا سَـاكَنْ فِي كْتَانِي
إِدَا دْكَرْتَكْ يَا مُحَمَّدْ نْصِيبْ رَاحَا فِي نَفْسِي
لَوْلاَ حْبيبِي مُحَمّدْ مَا كَانْ عَرْشْ وْلاَ كُرْسِي
مَنْ شَاهَدْ الْكُونْ بِالكُونْ عْزَاهْ فِي عْمَى الَبْصِيرَة
ومَنْ شَاهَدْ بِالْمُكَوّنْ صَادَقْ عْلاَجْ السْرِيَرَة

وحيث إن الذكر يكون باللسان، فهو آلته، تصدر منها الظرافة. والذكر كلام طيب، يحل في القلب فيشعر صاحبه بالحلاوة. ذكر الأوراق التي تمثل الظاهر وأراد الكلام الحال فيها، وهو السر، والسر أمر مخفي مكنون، فهو جوهر، ليهرب من الآلية التي لا تناسب الوجدان إلى المحلية التي تناسبه، فأعقب بقوله سر الأذواق، والذوق لا يحصل إلا في القلب، لذا قال ساكن في كتاني، يريد ثوبي بمعنى قلبي، قال تعالى:{وثيابك فطهر}(30).

قال امرؤ القيس:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت أزمعت صرمي، فأجملي
وإن تك قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسلي(31)

يريد أنها لا تستطيع هَجْره، فقد حصل حلول لقلبيهما، فاتحدا، كما حل المجذوب في ذاته، مستوطنا المقام الذي وصل إليه بذوقه، الذي شحذه بمجاهدة النفس ومحاسبتها على التقصير، ليحدد ذاته، بكونه ساكنا في قلبه منشغلا به، راكنا إلى التجريد، قاصدا الوصول إلى مقام التوحيد، وهو أعلا المقامات الصوفية، قال صلى الله عليه وسلم:"الإيمان بضع وسبعون شعبة، أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها لا إله إلا الله". رواه الترمذي.

يقول المجذوب في هذا الشأن:

أَقَارِينْ عَلْمْ التَّوْحِيدْ هْنَا الَبْحُورْ لِّي تَغْبِي(32)
هَذَا مْقامْ اَهَلْ التَّجْرِيدْ الْوَاقْفِينْ مْعَ رَبِّي(33)

فتوظيفه للعلاقة المحلية يناسب الكلام عن الأحوال والأذواق والمقامات والوجدان بصفة عامة. ولو تأملنا قوله من شاهد الكون بالكون، فقد ذكر المشاهدة - وهي لا تحصل عادة سوى بالبصر - أراد الرؤية التي تتحقق بالعقل؛ قال تعالى {ألم تروا أن الله له ما في السموات وما في الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير} سورة لقمان الآية 20.

فالكون يُشاهد بالكون، أي بما تحل فيه من النعم الظاهرة، كالسمع والبصر، وهذا لا يكفي لتكون الرؤية واضحة، بل لابد من المشاهدة بالمُكون، والمكون: هو الله جل جلاله؛ أي حين يكون القلب عامرا بالله والخاطر صافيا، والغشاوة والأقفال عن القلب منقشعة، قال تعالى: {أفلا يتدبرون القرآن أم على قوب أقفالها} سورة محمد الآية 24، وقال جل شأنه: {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} سورة الحج الآية 46 لهذا؛ وصف المجذوب حال المشاهد بالمكون- أي بالقلب الذي يحل فيه الله المكوّن- فلا يكون معه سواه، فيملأ القلب نورا، فيكون ما رآه المجذوب حقا؛ لذا قال: "صادق". لأنه عالجه من الأمراض بالتخْلية من الرذائل، والتحْلية بالفضائل. وأشار إلى المعالجة بقوله "علاج السريرة": أي موطن الكثمان، كناية عن القلب.

إذا ثبت ذلك، عرفت كيف يكون العشق مفتاحا للقلب، وكيف يكون القلب صندوقا لجواهر التوحيد، التي تحل فيه، فتنير مصباح البصيرة، فيحدث الكشف الرباني ويُطبع العلم اللدني.

والذي ينبغي التعويل عليه في تفسير كلام المجذوب هو ما قاله ابن خلدون في مقدمته: "ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر، يتبعها غالبا كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله، وليس لصاحب الحس إدراك شيء منها. والروح من تلك العوالم، وسبب هذا الكشف أن الروح، إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس، وقويت أحوال الروح، وغلب سلطانه وتجدد نشؤه، وأعان على ذلك الذكر، فإنه كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال في نمو وتزيد إلى أن يصير شهودا بعد أن كان علما. ويكشف حجاب الحس، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية(34).

لقد كان ذِكْرُ المجذوب للمحل أبلغ في التصوير وأدق في التعبير، لاسيما وأن المعاني الصوفية تتزاحم، والعبارة لا تتسع، فاضطر إلى الإشارة الخفية، وأكثر من المجاز الذي علاقته محلية؛ فارجع نظرك كرتين إلى قوله "قلبي صنيديقة ذهب" وكيف أنه جعلك تتصور صُنيدِيقا مليئا بالجواهر، تميل النفس، وقد صغّر المحل"صنيديقة" للإشارة إلى قيمة المحل السانية، أو تنبها إلى مقام التواضع الذي هو أول الجواهر التي تزين قلب الصوفي، وتصلح أن تكون فراشا لسائر الجواهر السامية، يقول المجذوب في مقام التواضع:

أَنا عَبْدَ الرَّحمَنْ المَخْنتَرْ وَاَنَا عْبِيدْ الرُّباعَا(35)

فِي الْغَربْ نَعْطِيني وَنَّاخُذْ وَغْبِيتْ لَلنّاسْ قَاعَا

افتتح الرباعية بالإفصاح عن الذات الصوفية من خلال استعمال ضمير المتكلم "أنا"، الذي تكرر مرتين في البيت الأول، فأسند إلى ذاته صفتين تشيران إلى مقام التواضع؛ هي:

"المخنتر"، و"عبيد الرباعا". قال الجوهري: "الخنثر بفتح الخاء والثاء وكسر النون: الشيء الخسيس وقوم خثراء الأنفس: مختلطون"(36). وتعني عبيد الرباعا، خادم الجماعة؛ يقصد الأشياخ الذين أخذ عنهم السلوك، والمريدون الذين أخذوا عنه في الغرب فذكر المحل "الغرب" وأراد من هو حال به من تلك الجماعة، ومنيتأمل قوله "قريت في اللوح المحفوظ" يجده قد سمى المحل بالحال، لأن تصور اللوح يزرع في قلب المتلقي حب الاستطلاع، ولو قال قريت المكتوب، لكان أشبه بالتقرير منه إلى التصوير.

خلاصة

من خلال التأمل في رباعيات المجذوب التي تتضمن المجاز المرسل الذي علاقته المحلية يمكن أن نستنتج ما يلي:

استعمل المجذوب لغة طبيعية متداولة في التعبير عن مواقف اجتماعية، سياسية... لاسيما عند حديثه عن: (سوف السرس الغرب...) وهي محلات مادية، تعبر عن من يحل بها من الناس. كما استعمل لغة صوفية خاصة، في التعبير عن معتقداته ووجهة نظره فيما يرتبط بعلم الحقيقة أو ما اسماه بعلم التجريد، وهنا تصبح المحلات معنوية، عبارة عن علامات سيميائية: مثل: (الألواح والكرسي والغرب ...) وقد عبر بالأوراق والأذواق والألواح والقلوب عما يحل بها من المعاني الحقيقية التي سعى ببصيرته إلى إدراكها...

- ساهم مجاز المحلية في الرباعيات في تأسيس نماذج سلبية وأخرى إيجابية لفضاءات معينة صارت تحمل أحكام قيمة في الثقافة المغاربية المشتركة؛ حيث التصق بالمخيل الشعبي البخل بالجبل، والجوع بالصحراء، والفوضى بالغرب... وكل هذه الأحكام موجودة في الدواوين المطبوعة، وهي أحكام جاهزة قد تستغل لضرب نموذج الشيخ الصوفي، ومن ثمة كان لا بد أن يستند التحليل البلاغي إلى السياق، ويستدعي الظروف النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتاريخية المحيطة بالرباعيات.

- سعى المجذوب إلى تشيد نموذج الشيخ الصوفي العارف بالله الواصل، فاستطاع من خلال تعبيره عن الحال بالمحل أن يكشف عن الأسرار العرفانية التي عجزت الحقيقة أن تجليها.

الهوامش

1. رشيدة أغبال "الشعر بين الغموض والوضوح في النقد العربي القديم". مجلة آفاق أدبية،ع 2008/2,ص69.

2. محمد الأمين "غموض النص الأدبي وتأويله في الشعر القديم". مجلة آفاق أدبية ،العدد السابق، ص .69

3. وقد ألف محمد المهدي بن أحمد الفاسي حفيد أبي المحاسن يوسف الفاسي كتابا سماه،ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن والشيخ المجذوب (مخطوط بالخزانة الملكية).انظر محمد بن الطيب القادري ، التقاط الدرر ،تحقيق هاشم العلوي القاسمي، ط 1403/1.ص .44

4. ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب،ميكروفيلم تحت رقم 298.مكتبة آل سعود اللوحة .2

5. الجرجاني، كتاب دلائل الإعجاز، تح أبو فهر / محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ط 3 /1992 ص .70

6. ولد المجذوب بمدينة مولاي عبد الله التابعة إداريا لعمالة الجديدة، وكانت مولاي عبد الله تعرف قديما بطيط :

يقول المجذوب: جِيتْ من طيطْ بالعَجَلة والشَّرْ زادني شْظايا الخُبز دَخلُه الجَص عْلاشْ يا طالَبْ ذا الْقْرايَة

7. البلاغة الواضحة علي الجارم –مصطفى أمين . المكتبة العلمية .د.ت. ص 102.

8. القزويني؛ الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد القادر؛ المكتبة العصرية ط2015، ص265. 1

9. نفسه ص 268-271.

10. نفسه،رقم 126، ص 90. ناضوا أصلها نهضوا، والمعنى قاموا.

11. محمد رباحي،قال المجذوب رقم 16، ص .35

12. نفسه، رقم 173، ص .108

13. نفسه، رقم 38، ص 44

14. نفسه، ص .44

15. ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب :اللوحة .2

16. انظر الإنسان في الشعر الجاهلي عبد الغني زيتوني. مركز زيد للتراث والتاريخ ط/1 2001ص 26 و ص 51

17. مدخل إلى ميادين علم النفس ومناهجه؛ الدكتور رالف رزق الله والدكتور كمال بكداش؛ دار الطليعة، بيروت ط1 /1981 ص 117- .118

18. نفسه، ص 116.

19. ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب اللوحة 2.

20. رالف وبكداش ص 116.

21. نفسه، رقم 39، ص 45.

22. نفسه، رقم 1، ص 27.

23. نفسه رقم 150 ص 101، والغرب هنا: غرب المغرب الأقصى.

24. ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب،ميكروفيلم تحت رقم 298. مكتبة آل سعود اللوحة .2

25. الارياح: جمع روح: قال ابن منظور الاستراحة.والرحمة، لسان العرب ج/2 /ص 449. ويقول ابن القيم: "سميت الروح روحا لأن بها حياة البدن. وسميت الريح لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو، ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر: إذا هبت الأرواح من نحو أرضكم وجدت لمسراها على كبدي بردا" كتاب الروح لابن القيم الجوزية دار الفكر ط1/1425-2005/ص272.

26. نقل بن منظور عن الزهري أن الحول: الحركة. ومنه لا حول ولا قوة. فسرها لا حركة ولا قوة.... ومن معانيها صروف الدهر. لسان العرب ج11 باب اللام فصل الحاء ص .189

27. نفسه.

28. ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب اللوحة 2.

29. نقل بن منظور عن الزهري أن الحول:الحركة، ومنه لا حول ولا قوة. فسرها لا حركة ولا قوة.... ومن معانيها صروف الدهر.لسان العرب ج11 باب اللام فصل الحاء، ص 189.

30. انظر ابن العربي أحكام القرآن دار الفكر ج/4. ص 3. تفسير ابن كثير المكتبة التوفيقية ج/8 ص 206، وفي صفوة التفاسير للصابوني دار القرآن الكريم ج/3 ص 474 عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كنى بالثياب عن القلب والمعنى قلبك فطهر من الإثم والمعاصي. وهو قصد المجذوب في رباعيته.

31. ديوان امرئ القيس دار صادر بدون تاريخ. ص1.37

32. تغبي أصلها تبغي قلبت لكثرة الاستعمال كقول كثير من أهل دكالة غْمَ يريدون مْعَ.

33. أهل التجريد: الصوفية؛ فهم أهل الزهد في الماديات والتجرد منها لأنهم أهل الصفاء. وهذا يعني أن المجذوب لا يرى في الصوفي المتجرد من الثياب الطاهرة بمعناها المادي؛ أي اللباس، وإنما تجريد الثوب بمعناه المعنوي؛ أي القلب وتخليته من الذنوب والمعاصي وتحليته بحلل الفضائل. يروي الدباغ قول بعضهم: تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقا من الصوفي

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صفى فصوفي حتى سمي الصوفي

قواعد التصوف للإمام أحمد زروق الفاسي عرض وتقديم الأستاذ محمد بن عبد العزيز الذباغ محافظ خزانة القروين مجلة، دعوة الحق ع 335محرم-صفر 1419/ماي يونيو 1998 ص 123. والبيتان السابقان في ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب اللوحة .2

34. مقدمة ابن خلدون ص381-382 يقول أحمد زروق " مبنى العلم على البحث والتحقيق ومبنى الحال على التسليم والتصديق، وآثار السلف، لأن العلم معتبر بأصله،وإذا تكلم من حيث الحال سلم

له ذوقه إذ لا يوصل إليه إلا بمثله". مجلة دعوة الحق العدد 335 /1998. عرض وتقديم عبد العزيز الدباغ ص 124.

35. ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب اللوحة 1.2

36. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية.تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ج/3، ص 642.

قائمة المصادر والمراجع

01. القرآن الكريم برواية ورش بهامشه تفسير وبيان الكلمات،دار الصبح بدون تاريخ.

02. أبو بكر بن العربي المعافري ،ابن العربي انظر أحكام القرآن دار الفكر.

03. ابن منظور، لسان العرب،دار صادر ط 2003.

04. ابن القيم الجوزية، كتاب الروح لابن القيم الجوزية دار الفكر ط1425/1-2005.

05. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تعليق هاني الحاج، المكتبة التوفيقية.

06. امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، دار صادر، بدون تاريخ.

07. الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفورعطار، دار العلم للملايين.

08. رالف رزق الله والدكتور كمال بكداش، مدخل إلى ميادين علم النفس ومناهجه، دار الطليعة بيروت،

ط1 /1981.

09. مصطفى أمين،عالي الجارم. البلاغة الواضحة علي الجارم، المكتبة العلمية .د.ت.

10. محمد علي الصابوني صفوة التفاسير للصابوني، دار القرآن الكريم، ط1989/4.

11. محمد رباحي، قال المجذوب، ط 3، الجزائر، مارس، 2011.

12. محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، ط 1403/1.

13. عبد القاهر الجرجاني، كتاب دلائل الإعجاز، تح: أبو فهر/محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط 3 /1992.

14. عبد الرحمان المجذوب، ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب، مخطوط تحت رقم، 298، مكتبة آل سعود الدار البيضاء.

15. عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون دار الكتب العلمية، ط 1، 2000.

16. عبد الغني زيتوني،الإنسان في الشعر الجاهلي. مركز زيد للتراث والتاريخ ط/1. 2001.

17. القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، ط، .2002

18. آفاق أدبية ع2/محرم 1428هـ /2008م.

20. مجلة دعوة الحق، ع 335 محرم- صفر 1419/ ماي يونيو 1998.